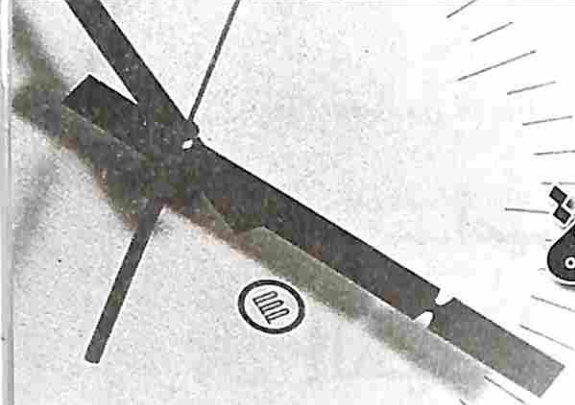

قصة قصيرة

خمس وأربعون ثانية

"من وحي زلزال تركيا"

فرمان قره جام - ترجمة: علي نار
إستانبول

هناك حافلات للسفر من إستانبول إلى آضابازري ويالوى، وإلى بورصة وإزميت، لكنني دائماً أسافر بالقطار. لم يعد أحد يرفع يده ملوحاً لوداع المسافرين خلف الحافلات كما كان في السابق، ولم تعد ترى من يطرق رأسه حزناً للفراق، ولا من يسكب الماء على الطريق خلف المسافرين تفاؤلاً بسلامة العودة!! كما لم يعد أحد يرفع يده طويلاً وهو يدعو للمسافرين.

والحقيقة أن المسافر ليوم واحد أو ليلة واحدة فقط يمكن ألا يعود أيضاً!! لا تنظروا إلى البحر أنه مكون من ثلاثة أحرف، ففضلاً على الأمور العادية التي في البحر، وعلى الزبد الذي تخلفه أغنيات أمواجه الزرقاء التي تلطم الشاطئ باستمرار؛ فإن في أعماقه أسراراً عميقة!! فيه اللؤلؤ والمرجان، والحيتان الضخمة، والصخور المرجانية، وتعلمت الآن أنه يتكون فيه خلال خمس وأربعين ثانية جبال من اللهيب.

كان الليل يغطي بصمته المطبق على النائمين، ونسائم السابع عشر من شهر آب الحارة تملأ جوانحنا، كنا نتنفس كطفل مستسلم للنوم في حضن أمه.

كنا والليل ننام وقد التف بعضنا على بعض في غاية من الود والإخاء، يثق أحدنا بالآخر ثقة مطلقة.

كتبت زوجتي في إحدى رسائلها: أتظن أن من السهولة بمكان أن تفرغ دقات الساعة في رأسك في هدأة الليل؟! بالتأكيد ليس سهلاً!!

يقولون: إن النجوم في تلك الليلة كانت تتحرك بشكل غير عادي فوق سماء الغابات الكثيفة.

في ذاكرتي كنت وحدك فقط، ورأيت أمي في المنام، كانت حزينة حتى تكاد تبكي، ظننت أنه سيحدث لكِ شيء ما، واغتممت جداً.

واتخذت الحيطة اللازمة.

وسادتي كانت مبللة من العرق، فقلبتها بعيد منتصف الليل، ودعوت الله لك، وترحمت على أمي.

التحفت بغطاء خفيف.. نافذتي مفتوحة.. أنت في قلبي.. وقلبي يكاد يبلغ حنجرتي!! عيناني مسمرتان في السقف.. وهكذا دخلت عالم النوم!.

على الجدار لوحة زيتية، وإلى جانبها أتخيل صورة كبيرة لك!

لا أدري كم الساعة؟! الجدار يتهاوى نحوي، ودوي مخيف لا مثيل له يقتحم غرفتي من النافذة، ومع الدوي الهائل سحابة كثيفة من الغبار والدخان تتجه نحو سماء إستانبول!!

أصوات الاستغاثة تتعالى من غرف النوم، منبهات السيارات انطلقت مذعورة لا تعرف التوقف، الكلاب تنبح. وبدت النجوم متكدرة بشكل غير معهود، انطفأت الأضواء، الصرخات والاستغاثات تتصاعد إلى السماء متعلقة بأجنة الأصوات الرهيبة. صراخ طفل يشق الظلام، ويتردد صداه بشكل مؤلم بين الجدران المتساقطة.. أمي...

سقط شيء على رجلي، ولكن لم أشعر بالألم، قلبي هناك.. عقلي عندك.. جسمي فقط هنا!! روحي تخفق بأمل لا يحد.. الأمل.. لا إله إلا الله، هذا هو أوان الثبات والصبر، أعتصم بالله، أفكر فيك، أنت.. أنت.. أنت.. لا أنساك! أنت «أليفة» البالغة الخامسة والثلاثين! أنتَ فؤاد البالغ الخامسة والعشرين.. أنتِ شيرين البالغة التاسعة عشرة!! أما أنا.. فأنا فرحات.. فرحات.. بيدي الفأس أحاول الوصول إليكِ تحت الركام الإسمنتي المتهدم.

صوتك يأتي من الأعماق، يتسرب كالماء، يتحشرج كنعومة الحرير الأزرق، يقف الركام أمامي كالجبل تماماً، أنفاسك تنساب من تجاويف الركام الإسمنتي.. لو تمدين يدك فقط!! فأنا فوق رأسك تماماً. هنا .. لكنك لا تسمعينني، ولا تمدين يدكِ! عقلي وروحي وقلبي كلها عندك..جسمي معي فقط.

نحن وأنتِ كنا مثل الأصوات التي تصدر من الأسياخ الحديدية، أليس كذلك؟! أثر جرح واضح على جبهتي، أنتِ لم تسامحيني بعد!.

الليل والبحر لم يكونا ليلاً وبحراً فقط!! في هذه اللحظة تعلمت هذا.. خلال خمس وأربعين ثانية بدأت الأمهات يبكين فلذات أكبادهن.. ويصرخن ولدي.. ولدي..

وتعالت صرخات الأطفال.. أمي.. أمي..

كان أبي ينظر إليّ بعينيه الدامعتين وهو يخلل لحيته الثلجية، ويقول: يا بني الموت قريب منا مثل قرب سواد العين من بياضها. الرجاء في عفو الله دائم، ولكن لابد من المواجهة!.

* فرمان قره جام مدير الإذاعة السابعة في إستانبول.

* علي نار: رئيس المكتب الإقليمي لرابطة الأدب الإسلامي العالمية في إستانبول.